

مداخلة ندوة "دور العمل الايجابي في بناء عالم أفضل : مقارنة رسائل النور تجديد المفاهيم وطرق تنزيلها

أ.د. صباح زخيني
أستاذة علوم الحديث، كلية الآداب،
جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب

أ.د. حسن الأمراني
رئيس تحرير مجلة المشكاة، المغرب

خطة البحث :

- ١- مقدمة: في حاجة الأمة إلى رسائل النور.
- ٢- تجديد المفاهيم.
- ٣- مفهوم العمل.
- ٤- مفهوم البناء.
- ٥- مفهوم الغد الأفضل.
- ٦- دوافع العمل الإيجابي.
- ٧- عوائق التنزيل.
- ٨- طرق العلاج.
- ٩- خاتمة.

مقدمة

في حاجة الأمة إلى رسائل النور

يقول رسول الله ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها"^(١) واستنادا إلى هذا الحديث فإن الدعوات الإصلاحية في العالم الإسلامي لم تتوقف عبر العصور، وقد كانت بعض هذه الدعوات آنية، أي إنها كانت صالحة لزمانها فقط، بينما اكتسبت دعوات أخرى قدرة على تجديد نفسها، مما كتب لها البقاء والاستمرار. وكمثال على الدعوات الآنية نذكر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي كانت تركز على التوحيد، ولكن من خلال بعض مظاهره المحدودة فقط، مثل محاربة زيارة الأضرحة والتقرب إلى الله تعالى عن طريق دعوة الأولياء، مما جعل هذه الدعوة عاجزة عن الامتداد الأفقي والعمودي، وآلت اليوم إلى بعض الأشكال والرسوم المنفصلة عن الواقع، والعاجزة عن معالجة القضايا الجوهرية للأمة. وأما الدعوات المتجددة فخير من يمثلها في العصر الحديث دعوة بديع الزمان سعيد النورسي، ذلك بأنها دعوة شاملة تعالج كل ما يتعلق بالفرد والجماعة، مع مراعاة العصر والواقع.

ومن هنا فإن الأمة الإسلامية اليوم وهي تشهد ما تشهد من مظاهر التصدع والشقاق، بل والقتال في بعض الأحيان، هي أحوج ما تكون إلى استحضار دعوة بديع الزمان النورسي^(٢) التي من مقوماتها العناية بالمحبة والرحمة والشفقة والخوف، وهذه العناصر مجتمعة من أسس الفعلية، إن نحن أدركنا هذه المقومات على حقيقتها، بحيث نتوجه بها إلى

(١) والحديث أورده أبو داود في سننه في أول كتاب الملاحم، (باب ما يذكر في قرن المائة) بسنده إلى سليمان بن داود المهري، قال: أخبرنا - عبد الله ابن وهب، أخبرني سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة - فيما أعلم - عن رسول الله ﷺ قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها".

(٢) إن داء الطائفية الذي استشرى في الأمة بعد غزو العراق داء وبيل. وقد استشعر الإمام النورسي خطورة هذا الداء فقال: (فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة، ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكا لكم، ارفعوا فوراً هذا النزاع الذي لاعمى له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه. وإن لم تزيلوا هذا النزاع فإن الزندقة الحاكمة الآن حكما قويا تستغل أحدكم ضد الآخر وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائها تحطم تلك الأداة أيضا). اللمعات: ٣٦.

قصدها الحقيقي الشريف، وإلا تحولت إلى سبب من أسباب الشقاء، بدلا من أن تكون وسيلة إلى السعادة التي هي قرينة الغد الفضل.

وهذا ما يجسده النورسي عندما فرق بين العشق الحقيقي والعشق المجازي، والعامل هو من يجتهد من أجل أن يتحول العشق المجازي . وهو محدود بمتع الحياة الدنيا . إلى عشق حقيقي، يتمثل في التوجه بالحب إلى (محبوب باق لا يزول)^(١)، (ومنها تنتقل المحبة إلى محبة تجليات الأسماء الحسنی)^(٢). فالحب، أو العشق الحقيقي، من وسائل تحقق العمل الإيجابي في هذه الحياة. يقول النورسي: (إذا تمكّن العشق من النفس . في طريق العشق الذي هو أنفذ الطرق الموصلة إلى الله . فإنها تتشبث بالمعشوق المجازي، وعندما ترى زواله تبلغ المحبوب الحقيقي)^(٣).

وكذلك أمر الشفقة، فإنها إن أحسنا توجيهها كانت عاملا من عوامل البناء، ورصيدا للفعالية، فإن نحن أخطأنا المقصد الأسنى تحولت إلى وبال. ويقرن بديع الزمان بين المحبة والشفقة على صعيد واحد، من حيث التأثير والتوجيه فيقول: (الذي ينسى نفسه ويغفل عنها، ولم يفكر بزوال حياته، وحسب دنياه الخاصة الفانية ثابتة كالدنيا العمومية، ناسيا زوال الحياة، عاداً نفسه خالدا فيها فسكن إليها وتمسك بها بجميع حواسه ومشاعره يغرق فيها وينتهي أمره، فتكون تلك المحبة وبالا عليه وعذابا أليما، لأنها تولد شفقة ورقة قلب يأس اليتيم، فيقاسي الألم من أحوال ذوي الحياة حتى يستشعر ألم الرقة والفراق مما يصيب المخلوقات الجميلة المعرضة لصفعات الزوال والفراق، ويجد نفسه مكتوف الأيدي إزاءها فيتجرع الألم في يأس مرير)^(٤). وأما الشفقة الإيجابية البانية التي تساعد المرء على العمل الإيجابي، وترقى به إلى أن يصبح جزءاً من بناء الغد الأفضل، فيقول عنها البديع: (أما الشخص الأول الذي نجا من شبك الغفلة، فإنه يجد بلسما شافيا إزاء شدة ألم الشفقة تلك، إذ يشاهد في موت ذوي الحياة وفي زوال من يتألم لأوضاعهم، بقاء مرايا أرواحهم التي تمثل تجليات دائمة لأسماء دائمة لذات جليلة باقية خالدة، وعندئذ تنقلب شففته إلى سرور

(١) انظر المكتوبات ص ١٢ .

(٢) نفسه ص ١٣ .

(٣) انظر المكتوبات ص ٥١٦ - ٥١٧ .

(٤) نفسه .

دائم)^(١)، ولما يتأمل هذا الشخص أسماء الله الحسنى يجد أن لهذه الأسماء تجليات لا تحد ولا تحصر، ويدرك أن هناك (شفقة مقدسة مطلقة ومحبة مقدسة مطلقة تليقان به سبحانه وتلائمان غناه المطلق وتعالیه وتقدهس وتوافقان كماله المطلق)^(٢)، فيمنحه ذلك حبوراً ورغبة في الاتصاف بتلك الصفات، ويجعلها من أخلاقه، تأسياً بما ذكره بعض أهل التصوف من التخلق بأخلاق الله تعالى.

وعند النورسي أن الشفقة قد تعلقو على المحبة نفسها، إذ الشفقة مجردة، ولا يطلب صاحبها من ورائها أجراً، ودليل ذلك (أن المشاعر والأحاسيس الشديدة الساطعة التي كان يشعر بها سيدنا يعقوب تجاه سيدنا يوسف عليهما السلام ليست مشاعر نابعة من المحبة والعشق، بل نابعة من الشفقة، لأن الشفقة أنفذ من المحبة والعشق، وأسطع منهما وأعلى وأنزه، فهي الأليق بمقام النبوة)^(٣).

وأما الرحمة، وهي صفة عني بها بديع الزمان كثيراً، فهي من الصفات الجوهرية التي عني بها القرآن الكريم، وقد قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤)، وفي الصحيح: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)^(٥). إن حديث رسول الله ﷺ، كما قال عنه النورسي "معدن الحياة وملهم الحقائق"^(٦) وسيرته نموذج عال للرحمة.

وكما قارن النورسي بين المحبة والشفقة وقرنهما، كذلك قارن بين الرحمة والشفقة وقرنهما قائلاً: (إن الشفقة التي هي ألطف تجليات الرحمة الإلهية وأجملها وأطيبها وأحلاها.. هي إكسير نوراني، وهي أنفذ من العشق بكثير)^(٧).

إن المحبة والشفقة والرحمة إذن هي أمور كفيفة برأب الصدع وجمع شمل الأمة من جديد

(١) انظر المکتوبات ص ٥١٧.

(٢) نفسه ص ١١١.

(٣) انظر المکتوبات ص ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٥) رواه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة حديث رقم ١٩٢٤ وأبو داود في كتاب الأدب حديث رقم ٤٩٤١.

(٦) المکتوبات: ٥٦٧.

(٧) انظر المکتوبات ص ١٠١.

على هدي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتحقق التجديد المنشود المستلهم من العطاء النوري. ومما يُزين فكر النورسي ودعوته أنه يصوغ مبادئه ببديع أسلوبه، وأبهة بلاغته، ورائق بيانه، فكأنه حكيم يمد يده إلى صدور الناس ليحرك بأصبعه الحانية قلوبهم، وينفذ إلى الجمرة المتقدة في نفوسهم ليعيد إليها فعاليتها.

تجديد المفاهيم وتحديد المصطلحات:

من خصائص فكر بديع الزمان تجديد المفاهيم وتحديد المصطلحات، ومنها ما يتعلق بموضوعنا: "دور العمل الايجابي في بناء عالم أفضل". وإن مما ينبغي تحديده وتحديد مفهوم العمل الايجابي عند النورسي، ومفهوم البناء، ومفهوم العالم الأفضل وسبل تحقيقه. وقد اكتسبت هذه الأمور دلالات متجددة، انطلاقاً من القطب الذي تدور حوله كل القضايا النورية، وهو قطب الارتباط بالدين، وجوهره هو النظر إلى الآخرة، إذ الإيمان بالآخرة هو المحرك الذي يعطي كل شيء فعاليته في الحياة الدنيا، فإذا انتقض ذلك القطب انهار كل شيء، أو انخرق عن مساره على أقل تقدير.

مفهوم العمل والعمل الايجابي:

ينقسم العمل عند النورسي إلى قسمين: عمل إيجابي وعمل سلبي، ويرتكز الايجابي في "افعل"، أما السلبي فهو أن تكف عما نهاك الله عنه، ونهاك عنه الرسول ﷺ، وهذا التقسيم قريب جدا من "الصالح" و"السوء"، إذ العمل الايجابي يقابله العمل الصالح، والسلبي يقابله السوء.

يقول النورسي في هذا الشأن: "إن وظيفتي هي العمل الايجابي البناء وليس السعي للعمل السلبي الهدام"^(١).

والعمل الايجابي البناء هو الذي يثمر ويدوم ويستمر من أجل الأمة وخدمتها من دون إفراط ولا تفريط مصداقا لقوله ﷺ: "يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"^(٢).

ويقول النورسي: "إنه لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء، وأن الاستقامة هي الحد الوسط الذي اختاره أهل السنة والجماعة"^(٣).

(١) انظر للمعات ص ٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب الجلوس على الحصير ونحوه حديث رقم ٥٨٦١.

(٣) انظر للمعات ص ٣٧.

ثم إن العمل الإيجابي هو العمل الذي يسلم فيه القصد والنية من جهة، إذ الأعمال بالنيات، ويكون مراعيًا للميزان الذي يجعل منه عملاً صالحاً، ألا وهو ميزان الشريعة. فحسن القصد والنية وصلاح العمل هما الشرطان الأساسيان لكل عمل إيجابي.

والعمل في مفهومه الواسع يتخذ أشكالاً ثلاثة:

فهناك عمل صالح يتخذه المؤمن سبيلاً إلى تحقيق سعادة الدارين، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(١) وهذا هو لب العمل الإيجابي.

وهناك عمل يظن صاحبه أنه يحسن صنعا، وهو مظهر من مظاهر الفساد الذي قال فيه الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٢) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٣).

ثم هناك عمل سيئ لا يرجى من صاحبه خير، ويصدق فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعِلْمِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

ويميز بين الصنفين قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٥). ويمكن أن يلحق بهذا الصنف صنف آخر، هو منه في النهاية وإن بدا على غير ذلك، فهو عمل صالح، كما يدل على ذلك ظاهره، إلا أنه يؤول إلى نتيجة مروعة، بسبب فساد القصد، وهي (إحباط العمل الصالح بالإيذاء والرياء)، كما يقول النورسي رحمه الله تعالى^(٦).

ومن الآيات البينات التي تقوي هذا المنحى، مع عناية خاصة بإبراز البلاغة التمثيلية، وبيان ما قد يؤول إليه العمل بسبب فقدان شرط الإخلاص، وإن كان صالحاً، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٧) ويضبط كل ما سبق قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) سورة الكهف الآية ٣٠.

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٣-١٠٤.

(٣) سورة يونس الآية ٨١.

(٤) آل عمران: ٣٠.

(٥) انظر إشارات الاعجاز ص ١١٣.

(٦) سورة النور ٣٩.

مَثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿٨﴾^(١)

يقول بديع الزمان رحمه الله تعالى، عند الوقوف عند هاتين الآيتين الكريمتين: "يا من يريد أن يرى دليلا على حقيقة الآيتين الكريمتين: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ اللتين تشيران إلى التجلي الأتم لاسم الله (الحفيظ).

إن التجلي الأعظم لاسم الله الحفيظ هو نظير الحقيقة الكبرى لهتين الآيتين مبثوث في الأرجاء كافة، يمكنك أن تجده بالنظر والتأمل في صحائف كتاب الكائنات، ذلك الكتاب المكتوب على مسطر الكتاب المبين وعلى موازينه ومقاييسه.

خذ . مثلا . غرفة بقبضتك من أشتات بذور الأزهار والأشجار، تلك البذيرات المختلطة والحبات المختلفة، الأجناس والأنواع، وهي المتشابهة في الأشكال والأجرام، ادفن هذه البذيرات في ظلمات تراب بسيط جامد، ثم اسقها بالماء الذي لا ميزان له ولا يميز بين الأشياء، فأيان توجهه يسيل ويذهب. ثم عد إليه عند الربيع الذي هو ميدان الحشر السنوي، انظر وتأمل... ألا ترى كيف تتمايز تلك البذيرات المتماثلة ويفترق بعضها عن البعض الآخر... لقد أظهرت كل بذرة بتجلي اسم الله (الحفيظ) وإحسانه ما ورثته من ميراث أبيها وأصلها بلا نقصان وبلا التباس"^(٢).

ومما يناقض العمل الركون إلى الكسل الذي استعاذ منه الرسول ﷺ: "وأعوذ بك من العجز والكسل"^(٣).

ومن مظاهر الركون إلى الكسل (حب الراحة والدعة والتطلع إلى تسنم الوظائف لدى

(١) سورة الزلزلة الآية ٧-٨.

(٢) انظر للمعات ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣) في حديث أبي سعيد الخدري ؓ قال: "دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: (يا أبا أمامة ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة)، قال: هوم لرمتي وديون يا رسول الله، قال: (أفألا أعلمك كلاما، إذا أتت قلته: أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟)، قال قلت: بلى يا رسول الله، قال: (قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من الكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)، قال ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني". رواه أبو داود في سننه حديث رقم (١٥٥٥).

الإنسان^(١)، وكل ذلك مما يستغله الشيطان ليفت في عضد الإنسان، وتتخذة شياطين الجن والإنس سلما إلى صرف المؤمنين عن مهمهم العالية. (إنهم يستغلون ما لديهم من حب للراحة والدعة، ويستفيدون من مكانتهم في الوظائف ليفسدوا علينا مهمتنا، ويعيقوا خدمة القرآن، أو ليصرفوهم عن العمل للقرآن بدسائس ومكائد خبيثة إلى حد يجدون لقسم منهم أعمالا كثيرة ليغرقوهم فيها من دون أن يشعروا كيلا يجدوا متسعا من الوقت للعمل للقرآن، أو يقدموا لقسم آخر أمورا دنيوية فاتنة ليشيروا فيهم الرغبات والهوى، لتصبيه الغفلة عن الخدمة.. وهكذا)^(٢).

والعمل الإيجابي لا يمكن أن يكون كذلك إذا قام على التقليد، ولا سيما تقليد أهل السفاهة، بل لا بد من أن يكون أصيلا، مستندا إلى الكتاب والسنة، وفق فهم متجدد وأصيل.

يقول النورسي: "أيتها النفس، لا تقلدي أهل الدنيا، ولا سيما أهل السفاهة، وأهل الكفر خاصة، منخدعة بزينتهم الظاهرية الصورية، ولذا ذمهم الخادعة غير المشروعة، لأنك بالتقليد لا تكونين مثلهم قطعا، بل تتردين كثيرا جدا"^(٣).

مفهوم البناء: وأما البناء فهو المعول عليه لإنقاذ الإيمان الذي هو سر نجات الفرد والجماعة. ولكن البناء إذا لم يكن منضبطا بقواعده صار وبالا على صاحبه، وهكذا فإن البناء ينقسم إلى قسمين: بناء صالح، وبناء طالح. وخير ما يعبر عن هذه القضية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَّا أَلْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ مِجْزَ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَرْزَأُ بُنْيَانَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

(١) انظر المکتوبات ٥٢٣.

(٢) نفسه ٥٢٣-٢٥٢٤.

(٣) انظر الكلمات ص ٤١١.

(٤) سورة التوبة الآية ١٠٧ - ١١٠.

فالبناء إذن منه محمود ومذموم، فلا يغرنا من يزعم الإصلاح وهو يبني، إذ البناء ما لم يقيم على تقوى من الله عز وجل كان على الحقيقة خرابا. وقد مثل النورسي لذلك بقول الله تعالى، في مقام الذم، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١). وهذا من التمثيل الذي قال عنه بديع الزمان: "اعلم أن مما اتفق العلماء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أئمة، وكسته منقبة، ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"^(٢). وهذا من بليغ ما قيل في باب التمثيل.

فما كل بناء هو بناء على الحقيقة. وإذا توسط (البناء) العمل الإيجابي والغد الأفضل لن يكون إلا بناء على تقوى من الله. وينبغي للعاقل أن يعمل للغد الأفضل الذي من أجله يكون البناء، وهو الغد الذي لا يتعرض للفناء ولا الزوال. نعم، إن الإنسان المستخلف في الأرض مدعو إلى عمران هذه الحياة الدنيا، ولكن هذا العمران . البناء . يجب أن يكون موصولا بالآخرة، التي هي مستقبل الإنسان الحقيقي، ومستقره الدائم. أو ليست السعادة هي التي أتعب الفلاسفة والمفكرون أنفسهم في البحث عنها والتنظير لها؟ وما السعادة على الحقيقة؟ ومن هو السعيد؟ إن القرآن الكريم أخبرنا عن السعادة وحقيقتها عندما قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾^(٣). وهذه الدرجة لا يدركها إلا العاملون. وفي هذا نجد النورسي يقول: (لا بد أن أسعد إنسان هو من لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا.. ولا يضحى بآخرتة للدنيا.. ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية.. ولا يهدر عمره بما لا يعنيه.. يتقاد للأوامر انقياد الضيف للمضيف، ليفتح باب القبر بأمان.. ويدخل دار السعادة بسلام)^(٤). فالبناء إذن ليس غير العمل الصالح، وهو العمل الإيجابي الذي تكون آخرتة هي السعادة. ولا ننسى أن الإنسان يجد في

(١) سورة العنكبوت الآية ٤١.

(٢) (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ١١١).

(٣) سورة هود الآية ١٠٨.

(٤) المكتوبات: ٩١.

الحقيقة بشارة السعادة في الدنيا، وذلك بأنه يجد للعمل الإيجابي في نفسه لذة خاصة. وذلك ما بينه بديع الزمان خير تبيان بقوله: (يا من لا يدرك مدى اللذة والسعادة في السعي والعمل.. أيها الكسلان! اعلم أن الحق تبارك وتعالى قد أدرج لكمال كرمه جزاء الخدمة في الخدمة نفسها، وأدمج ثواب العمل في العمل نفسه.

ولأجل هذا كانت الموجودات قاطبة بما فيها الجمادات . من زاوية نظر معينة . تتمثل الأوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند أدائها لوظائفها الخاصة بها والتي تطلق عليها "الأوامر التكوينية"، فكل شيء ابتداء من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كل منها يسعى بلذة تامة في أداء مهامها. أي اللذة كامنة في وظائف الموجودات، حيث إنها تقوم بها على وجه من الإتقان التام، رغم أنها لا تعقل ما تفعل ولا تدرك نتائج ما تعمل^(١).

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للموجودات التي لا تعقل، فكيف بالإنسان العاقل؟ وهكذا فإن الإنسان إذا أدرك هذه الحقيقة، واستيقن أن اللذة والسعادة في العمل نفسه، كان ذلك حافزا له على التشمير عن ساعد الجد والإقبال على العمل الإيجابي بكل تفان وإخلاص.

مفهوم الغد الأفضل: وأما الغد الأفضل، عند بديع الزمان، فليس غير المستقبل.

فكيف ينظر النورسي إلى المستقبل؟

يقول النورسي: "التفكر بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر، بل الذهاب فكريا من الحاضر إلى المستقبل، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع كما هو الحقيقة، فلا حاجة إلى الخيال، ولا يلزم الافتراض"^(٢).

إن الإنسان مطبوع على التشوف إلى المستقبل، لأن المستقبل غيب، ولأن الإنسان . منذ كان . كان ولوعا بمعرفة الغيب وكشف المحجوب. ولذلك سمى بعض الأساطير الشجرة التي أكل منها الأبنان "شجرة المعرفة"، قال تعالى: ﴿فَوَسَّوْاْ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا بَنِي آدَمُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَا﴾^(٣).

(١) للمعات: ١٧١.

(٢) للمعات ٢٢٥.

(٣) سورة طه الآية ١٢٠.

وكل النظريات الاجتماعية والاقتصادية إنما صاغها أصحابها شوقاً إلى غد أفضل، أي إلى المستقبل. وعلى سبيل المثال، رأت الشيوعية المستقبل في انتفاء الطبقة، بعد مرحلة الصراع الطبقي.

في حين رأى العالم الغربي أن السعادة في سيادة نموذج القوائم على سيطرة الرأسمال والاقتصاد الحر، وهذا ما صاغه فوكوياما في نظريته "نهاية التاريخ".
وأما المسلم فيؤمن أن الغد الأفضل، أي المستقبل، يكمن في عمله الدنيوي البناء الذي يوصله إلى سعادة الآخرة.

ولا يظن أحد أن طلب الآخرة، باعتبارها المستقبل الحقيقي، والغد الأفضل الحقيقي، يعني الانصراف عن الدنيا والزهد فيها زهداً يجعل الآخرين يتحكمون فينا، بتحكمهم في هذه الأرض. كلا، فإن المدافعة، وطلب العزة في هذه الحياة الدنيا هو من رسالة المسلم. وفي هذا يقول بديع الزمان: (أو تظن أن فقرنا ناجم عن من زهد في الدنيا أو كسل ناشئ من ترك الدنيا؟ إنك مخطئ في ظنك أشد الخطأ.. ألا ترى أن الجوس والبراهمة في الصين والهند وزنوج إفريقيا وأمثالهم من الشعوب المغلوبة على أمرها والواقعة تحت سيطرة أوربا هم أفقر منا حالاً؟

أولا ترى أنه لا يبقى بأيدي المسلمين سوى ما يسد رمقهم وقيم اودهم حيث يغصبه كفار أوربا الظالمون منهم أو يسرقه منافقو آسيا بما يحيكون من دسائس خبيثة؟
إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسراً إلى المدنية التي هي الدنية "أي بلا ميم" تسهيلاً لإدارة دفة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا أنكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد...

وبناء على ما تقدم من الأسس فليس بالمسلمين حاجة إلى ترغيبهم وحثهم على حب الدنيا والحرص عليها، فلا يحصل الرقي والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا السلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائل التعاون فيما بينهم، ولا تتم هذه الأمور إلا باتباع الأوامر المقدسة في الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته^(١).

ثم إن قيمة العمل ليس في حجمه ولا مظهره وإنما في كنهه وجوهره، يقول البديع رحمه

(١) اللغات: ص ١٧٠.

الله تعالى: (ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا ينظر إلى صغره وكبره ولا إلى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الاخلاص تصبح نجمة متألقة)^(١)، ولا يمكن أن يتحقق القصد منه إلا إذا تحقق فيه شرطا الجد والحزم. إلا أن تنزيل هذه الأمور لا تخلو من عوائق كوسوسة الشيطان والكسل والاعجاب بالنفس، والرياء وعدم الاخلاص والحسد والأنانية والخوف والطمع^(٢)..

فالحسد في المنافع المادية يشوه نتائج العمل الايجابي، وقد يجر إلى المحذور وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتُرُوا عِبَادِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأْتُونِ﴾^(٣).

الدوافع والعوائق والعلاج

الآن وقد تحددت لنا المصطلحات والمفاهيم، وأدركنا حقيقتها، علينا أن نبحث عن سبل تنزيلها في الواقع، من أجل الالتزام بها، وتبين عوائق التنزيل من أجل تجنبها، وأن نعرف سبل علاج تلك العوائق والتغلب عليها وإزاحتها من الطريق، من أجل الإقبال على العمل الإيجابي البناء من أجل الغد الأفضل، بمأمن من تلك العوائق والعقبات.

دوافع العمل الإيجابي: ودوافع العمل الإيجابي تتضمن أيضا مقوماته وشروط تنزيهه.

يقرر النورسي رحمه الله أن ثمة طرقا عدة توصل إلى الغد الأفضل، نحملها فيما يلي:

١- **خدمة الايمان** الذي هو فوق كل اعتبار باعتباره مفتاح السعادة في الدنيا والاخرة، ولهذا يقول: "إن الايمان إذا دخل القلب يصير الانسان جوهرًا لائقًا للأبدية، وبالفكر يصير خزفًا فانيًا، إذ الايمان يرى تحت القشر الفاني لبا لطيفًا، ويرى ما يتوهم حبابًا مشمسًا زائلًا ألماسًا منورًا، والكفر يرى القشر لبا فيتصلب فيه فقط، فتنزّل درجة الانسان من الألماس إلى الزجاج، بل إلى الحباب"^(٤).

٢- **الاخلاص في العمل** والتفاني فيه حتى تعم الفائدة، إذ الاخلاص هو الشرط الأول في قوام الأعمال وقبولها، إذ لا ينفع صلاح العمل إذا فقد الاخلاص. يقول النورسي: "ثم إن الاخلاص في العمل ونشدان الحق فيه إنما يعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامة أيا كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر. وإلا فحصر النظر

(١) انظر للمعات ص ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

(٣) سورة البقرة: الاية ٤١.

(٤) انظر المثنوي العربي ص ١٥٨.

بأن يؤخذ الدرس والارشاد مني فقط لأفوز بالثواب الأخروي هو حيلة النفس وخديعة الأنانية"^(١).

وإن من العمل الايجابي ألا يشغل المرء نفسه فيما يخصه سبحانه وتعالى من تقدير وتدبير، وإنما كما يقول النورسي: "بل اجمع همك في القيام بما أنيط بك من واجب"^(٢).

٣- **الاقتداء بأهل الصلاح في العمل الايجابي وربط عرى المحبة معهم** إذ لا ينبغي أن يكون الاقتداء بأهل الصلاح إلا بأهل الصلاح في العمل الايجابي وربط عرى المحبة معهم. فأما الاقتداء بأهل السفه فلا يزيدنا إلا خبالاً^(٣). إن من شأن صحبة أهل الصلاح رفع الهمة، **والتعالي** على الصغائر، وصقل النفس وجلاؤها من الأدواء، كحب النفس والغرور. يقول النورسي، وهو يتحدث عن علاج أمراض النفس الأمانة: (الافتخار بصحبة السلكين في منهج الحق، وربط عرى المحبة معهم تطبيقاً للحديث: "الحب في الله"، ثم السير من خلفهم وترك شرف الإمامة لهم، وترك الإعجاب بالنفس والغرور، بناء على احتمال كون سالك الحق أيا كان هو خيراً منه وأفضل، وذلك ليسهل نيل الإخلاص)^(٤).

٤- **عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب**^(٥)، من غير أن يشغل ذهنه بعداء مخالفه، أي لا يشتغل بهم أصلاً. ذلك بأن قيمة العمل ليس في حجمه ولا مظهره وإنما في كنهه وجوهره، فنحن نقرأ في اللغات: "ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا ينظر إلى صغره وكبره ولا إلى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الاخلاص تصبح نجمة متألئة"^(٦). وهذا منسجم مع ما ذكرناه من قبل، من أن اللذة والسعادة في العمل نفسه.

(١) انظر اللغات ص ٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكلمات: ٤١١.

(٤) اللغات: ٢١١.

(٥) نفسه: ٢٠٧.

(٦) اللغات: ٢١٦.

٥ - اتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً^(١)، فبذلك يكون قادراً على تجنب الأنانية والغرور، وهما من الفواقر المهلكة. وبذلك لا يسمح للمنافسة، التي هي شيء فطري، أن تتحول إلى تحاسد وتباغض، والحال أن الذي ينبغي أن يجمع مع أهل القبلة هو الحب. ويزيد النورسي ذلك بيانا بقوله: (إن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: "إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل"، من دون أن يتدخل في امر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: "الحق هو مسلكي فحسب" أو "إن الحسن والجمال في مسلكي وحده"، الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها)^(٢).

عوائق التنزيل:

إن السالك يستحضر دوافع العمل الإيجابي، ويوطن النفس على تنزيلها في الواقع. إلا أن للشيطان مداخلة التي يريد من خلالها تثبيط الهمم، وتزيين الكسل والتعود للمسلم. ومن هنا تنبع عوائق في الطريق، ومنها:

- ١- الرياء: ويكفي الرياء داء أنه يسفد الأصل الأول من أصول مقومات العمل الإيجابي الذي هو الإخلاص. وفي هذا يقول بديع الزمان: "والإخلاص نقيض الرياء"^(٣).
- ٢- الأنانية: والأنانية داء وبيل، تحجب الحق، وتفضي إلى غمط الحق. وسبب ذلك تضخم "الأنا"، التي كانت سبب هلاك السابقين. فإبليس أهلكه قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٤)، وفرعون أهلكه قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٥)، . يجعل بديع الزمان "الأنانية" هي المانع الثاني للإخلاص، ويقول: (المانع الثاني للإخلاص هو إعطاء ما يداعب انانية النفس الأمانة بالسوء وما تستشرفه من منزلة ومكانة، تتوجه إليها الأنظار، وحب إقبال الناس وطلب توجههم بدافع من حب الشهرة وذياح الصيت الناشئ من التطلع إلى الجاه وحبه. فكما أن هذا داء روجي وبيل، فهو باب إلى "الشر الخفي" الذي هو الرياء والإعجاب بالنفس الماحق للإخلاص)^(٦).

(١) اللمعات: ٢٠٧.

(٢) نفسه.

(٣) اللمعات: ٢٠٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٢.

(٥) النازعات، الآية: ٢٤.

(٦) اللمعات: ٢٢٨.

٣- **الخوف والطمع:** وهاتان الصفتان محمودتان عند التعامل مع الله تعالى، فقد قال سبحانه في محكم الكتاب: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) ولكنهما خصلتان مذمومتان عند التعامل مع المخلوق، إذ هما مدخل إلى الرياء، الشرك الأصغر. بل هما من دسائس الشيطان، ضمن ست دسائس ذكرهما النورسي فقال: (إن الشعور بالخوف شعور عميق في كيان الإنسان، وغن الطغاة والظالمين الماكرين يستغلون كثيرا هذا الشعور لدى الإنسان فيلجمون به الجبناء، ويستفيد كثيرا جواسيس اهل الدنيا ودعاة الضلال من هذا الشعور لدى العوام ولاسيما لدى العلماء، فيلقون في روعهم المخاوف ويثيرون فيهم الأوهام... فيدفعونهم إلى التخلي عن أمور حسام من جراء مخاوف تافهة لا قيمة لها)^(٢).

٤- **الحسد والمشاحنة:** وهما من الأمراض الخبيثة التي تفتك بالنفوس، وتبطل الأعمال. يقول النورسي: "لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة تفضي الى الاخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمنن تحاسد فهو لا شك مرء"^(٣).
والحسد في المنافع المادية يشوه نتائج العمل الايجابي، وقد يجر إلى المحذور وينطبق عليه قوله تعالى: (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا)

٥- **التنازع والاختلاف^(٤):** وهذا داء وبيل، إذا أصيبت به الأمة دب إليها الضعف والوهن. و من علاج هذا الاختلاف التأدب بالآداب القرآنية والاتصاف بصفات عباد الرحمن ومنها اجتناب اللغو مصداقا لقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(٥)، وهذا يعني عدم الجدال والمرء والالتزام بخلق العفو ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾^(٦) والانصراف عن العمل الايجابي بدعوى التفرغ للذكر الفردي واجتناب المناقشات الداخلية والانسحاب

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٢) راجع القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين في المكتوبات ٥١٢ - ٥١٨.

(٣) اللغات ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٣.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٠٩.

من ميدان العمل مما يصيب صف المؤمنين بالوهن إذ هو من تلبس إبليس^(١).
٦- هذا ومن تلبس إبليس الانصراف عن العمل الايجابي بدعوى التفرغ للذكر الفردي واجتتاب المناقشات الداخلية والانسحاب من ميدان العمل مما يصيب صف المؤمنين بالوهن إذ هو من تلبس إبليس^(٢).
العلاج: وحري بنا بعد معرفة عوائق التنزيل أن نعرف سبل العلاج من هذه الأمراض والعوائق.

وسبل العلاج كثيرة، وكلها تؤول إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ، تبعاً للمنهج النوري، إذ هذا هو المنطلق وهو المنتهى. ويمكننا عرض بعض هذه السبل، بإجمال، فيما يلي:

- ١- ولا شك أن علاج هذه الأمراض يكمن، أولاً، في ابتغاء مرضاة الله وحده دون سواه^(٣)، وعدم إثارة نوازع الحسد بالتفاخر والاستعلاء، "نحن جميعاً أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الانسان الكامل"^(٤). وتلازم الحق والاحلاص وملازمتها لأنهما وحدهما مصدر القوة^٥ ثم تقوية الأخوة في الله لأنها الأخوة الحقيقية وهي طريق إلى الخليلية التي هي درجة عليا^٦
- ٢- عدم إثارة نوازع الحسد بالتفاخر والاستعلاء، يقول: "نحن جميعاً أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الانسان الكامل"^(٧).
- ٣- تلازم الحق والاحلاص وملازمتها لأنهما وحدهما مصدر القوة^(٨).
- ٤- تقوية الأخوة في الله لأنها الأخوة الحقيقية وهي طريق إلى الخليلية التي هي درجة عليا^(٩).

(١) انظر للمعات ص ٢١٤.

(٢) - نفسه.

(٣) انظر للمعات ص ٢١٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٢.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٤.

(٧) المصدر نفسه : ٢٢٢.

(٨) - نفسه: ٢٢٣.

(٩) - نفسه: ٢٢٤.

خاتمة: وخلاصة القول، فإن العمل الإيجابي البناء هو ثمرة من أهم ثمرات الإيمان، بل مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، يقع منها موقع الوجوب العيني، وجوهره أن يكون سلوكا جماعيا منظما، مُنطلقه القيم الإسلامية، وهدفه الارتقاء بالفرد إلى الإنسان الكامل من أجل ضمان عيش كريم في سلام واطمئنان، في مجتمع يحافظ على التوازن بين الطبقات ويحترم الآخر قصد الرقي بالأمة إلى الأحسن والأفضل لتكون خير أمة أخرجت للناس.

ولهذه الأسباب وغيرها، أعطى النورسي رحمه الله الأولوية لخدمة الإيمان باعتباره أساس بناء الإنسان، وثنى بالإخلاص، باعتباره الشرط الذي لا تسلم العمال إلا به، وجعل توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية قاعدة للعمل الإيجابي البناء، فدعا إلى إنزال مقاصد العمل الإيجابي البناء منزلة المحرك للأداء الحضاري.

والحمد لله رب العالمين.